ونحن نعلم أن الأمل من أهم عوامل السعي والعمل ، وأما القنوط فهو من أفعل دواعي التقاعد والشلل . ولهذا السبب نستطيع أن نقول : إن تطهير القلوب من شوائب الفتور والقنوط وتجهيزها بالأمل والإيمان يجب أن يكون من أهم أهداف العاملين ، ولا سيما فى الظروف التى أحاطت بالعالم العربى فى خلال هذه السنين

وبهذه الوسيلة ، وقبل أن أختم كلمتى هذه أود أن أذكركم بإحدى الأساطير اليونانية ، وهى « أسطورة باندور » :

باندور كانت إلـهة جمة الخصال تكونت من عطايا جميع الآلهة : أعطتها كل إلـهة من الآلهـة الموجودة فى ذلك الحين شيئاً من خصالها ، ولهذا السبب سميت هذه الإلـهة الجديدة باسم (باندور) بمعنى « عطية الكل »

عندما غضب جوبيتير على هرقل وأراد أن ينتقم منه فكر فى إغرائه بواسطة باندور ، فسلمها علبة سحرية ، وطلب إليها أن توصلها إليه من غير أن تفتحها وتطلع على ما فيها . وحملت باندور هذه العلبة ، غير أنها لم تستطع أن تتغلب على ميل الاستطلاع فى نفسها ، ففتحت العلبة فى طريقها ؛ وعند ذلك أخذ يخرج من العلبة جيش عرمرم من المساوىء والشرور ، وينتشر فى الأرض بسرعة العاصفة مع أزيز هائل . اندهشت باندور من كل ذلك ، وأخذت تبذل كل ما لديها من قوة لإعادة إقفال العلبة بسرعة ؛ غير أنه قد خرج من العلبة جميع الشرور قبل أن تتمكن من ذلك ، ولم يبق فيها إلا شيء واحد ، وكان ذلك الشيء الذى بقى فى العلبة مقابل جميع تلك المساوىء والشرور هو « الأمل »

إن حالة العالم العربى الآن تشبه الحالة التى حدثت عند انفتاح علبة باندور المذكورة فى هذه الأسطورة . لقد انتشرت المصائب والشرور فى العالم العربى ، ولم يبق بين أيدى أبنائه شيء غير « الأمل » ، فيجب علينا ألا ننسى أن الأمل هو من أهم عوامل العمل ، ولا بد أن نحرص عليه كل الحرص فلا نترك سبيلاً إلى تسلل القنوط إلى قلوبنا . فليكن قلب كل واحد منا شبيهاً بعلبـة باندور « يحفظ الأمل » بل لا يكتفى بحفظه فيسعى إلى تغذيته وتقويته إلى أن يتحول إلى « إيمان لا يتزعزع » يدفعنا إلى العمل المتواصل بروح التضحية والاخلاص .

ساطع الحصرى

إلى الأستاذ الزيات

تكيف الأخلاق الفاضلة

للأستاذ خليل جمعة الطوال

— بلى يا محمود ! وهل تشك فى ذلك ... ! إن الأخلاق الفاضلة هى مبعث كل سعادة ، وأس كل نجاح ، ولولا فضيلة الخلق لكان للعالم شأن غير هذا الشأن . فهى الصخرة الناشزة فى طريق الكفر التى تحطمت عليها أصنام الوثنية فى قريش ؛ وهى القوة العظيمة التى بدّلت نواميس الطبيعة التى لا تتبدّل يوم هرب موسى بشعبه من ظلم فرعون الطاغية ؛ بل هى العدة الوافرة التى تسلح بها المسلمون فى جهادهم فجعلت سيوف المشركين فى أيديهم خشبا ، وحملها العرب فى فتوحاتهم فإذا بها لقم تداعت له جوانب الإيوان وشرفاته ، وتلاشت فيه أبهة التاج ومجوهراته . ولكن ما العمل فقد تطور الحال ، واستحال الزمان ، ولم يعد ابن الأمس — المتوحش على زعمنا — فى قياس هـذا العصر بإنسان ، ولا أخلاقه الرجعية بالتى ترجح فيها كفة الفضيلة فى الميزان ؟

يا أخى ! إنها « لموضة » تعم كل شيء ، وتجتاح كل ما فى سبيلها ، وتخضعه لحكمها ؛ فلا فرق فى ناموسها بين الأخلاق الفاضلة والسراويل المخرجة التى يلبسها خصيان الأتراك . ومتى انتشرت « الموضـة » فعار على الإنسان أن يتخلف عنها . ولقد نظرتُ فى تاريخ المدنية فرأيت فيه أزياء من الأخلاق بعدد « موضات » الملابس ، ورأيت أن الأخلاق تتكيّف بالزمن وملابـاته ، تكيف الجسم بالمحيط ومؤثراته . وما تعمل الأخلاق غير هذا ... إنها مكرهة عليه لتحتال لنفسها على البقاء وتنجو من يد الفناء ، فهو طريقها فى شهوة الخلود ، ولا محيص لها عن سلوكه . ألا فانظر كيف يقلم الإنسان أظفاره لاستغنائه عنها ، ويدرمها « بالمونيكير » مجاراة للموضة ، وكيف حسر عن رأسه ليظهر شعرهُ السبطُ اللامعُ المطيب بأطايب « الموضة » أفلا يسفر بعد هـذا عن أخلاقه ! ... ولقد نظر فى ناموس

الأخلاق ، فرأى أن الفضائل التي كانت فيما مضى قائمة به إلى معالي الأمور ، حافزة له على عظيم المآثر ، هي القاعدة به اليوم عن عالي الرتب ، وعريض الجاه ؛ وهي السالكة به طريق الفشل ، والصادة له عن محجة النجاح ؛ فلا عجب بعد هذا أن يتنكب جادتها ، ويصد عن ورد شرعتها ؛ فالكرمُ الذي كان يتهالك عليه المرء فيما مضى ، إذ كان طريق السؤدد ومحمدة ما فوقها من محمدة أصبح اليوم — في عرف هذا العصر — تبذيراً وهوساً . وأعوذ بالله ممن يرميه الناس بالتبذير ، ألا يتهمونه بالهوس ؟ والحلم أصبح ضعفاً وعجزاً ، والتقوى تزمتاً ورجعية ، والحياء نقصاً في الرجولة وأنوثة . وما الفضائل الجلى ، والخطوة البالغة ، والمكانة السامية إلا في الطباع اللئيمة ، والكذب الصراح ، والتملق الشائن ، والخلق اللدن ، والمثالب الفاضحة ، والسفالة الواضحة .

هي الأخلاق تنصهر بالموضة وتميع ، ومتى ماعت جرت — حسب قوانين السوائل من فوق إلى تحت — من ذروة سمو النفس ، إلى دركة حيوانية الطبع ، وتشكلت بشكلها والعياذ بالله !

أين ذاك الزمان الذي كان يتنافس فيه الأقران على اجتذاب حبل الفضيلة بوأد حيوانية الطبع ، وعلى سمو النفس بصلب سفالة الشهوة ، وعلى زعامة الخلق بانكار أنانية الذات ، من هذا العصر الذي تدلت فيه معنويات الفضيلة ، فحبل الشهوات البهيمية على الغارب ، وخسة الطبع والقحة هما من الأخلاق في ذروتها ، والنبجح الكاذب مدار الحديث في كل مجلس وناد ؟ والأغرب أن الناس إنما يتجاحشون على الرذيلة باسم الفضيلة ، ويتمرغون في حمأة الموبقات باسم الأخلاق ، ويرتكبون اللتيا والتي باسم التجديد ! التجديد الذي شمل الأخلاق وعم الفضائل ، فحور فيهما وبدل ، ما حور وبدل في الثياب

استعرض الناس على اختلاف طبقاتهم وبيئاتهم ، وانظر علامَ يتجاحشون ! أعلى الصدق وهم يرونه آفة على جمع المال الذي احتكرته المخاتلة والخداع ؟ أم على الحياء وقد أصبح صاحبه مقروناً بالحرمان ، كما أصبحت الحظوة من مدلولات القحة ؟ أم على الكفاية وقد تغير مقياسها — بتغير الموضة — ولم تعد دليلاً على مقدار رسوخ قدم صاحبها في العلم والعرفان ، ولا على مقدار ما في نفسه من معنويات الشرف ، وطهارة الوجدان ، وإنما على مقدار ماله من جاه عريض ، وأصل أثيل ، وعلى عدد ما في بطانته من أرباب الرتب الملحوظة ، والألقاب الضخمة ، والشخصيات المنفوخة : إن صح هذا التعبير كالأفندية ! والباكوية ! والباشوية ! كلا ليس على شيء من هذه الفضائل يتجاحشون ، ولِمَ يتجاحشون عليها وهم يرونها — جميعها — قد اختلطت ، وتفاعلت ، وتركبت في جوهر واحد فقط هو الوظيفة ؟

أفلا تراهم يشترون أحط الوظائف دركة بماء وجوههم اللدنة ونخاسة سمعتهم السافلة ، وفضيلتهم الدابرة ، حتى إذا ظفروا بها بطروا ، وضحوا في سبيل استبقائها والحرص عليها بجميع أخلاقهم وبضمائرهم الموبوءة ، وما ذلك إلا ليكونوا من ذوي الزلفى ، وليشملوا بنشوة الغرور ، إذ يقول فيهم الناس ، تزلفت إلى البيك في الديوان وزرت الأفندي في الديوان ، وتوسطت في الأمر لدى الباشا في الديوان

قد يسوءك الأمر ويغمك ، ولكن الأخلاق الفاضلة غير مسئولة عن ذلك لأنها تطورتْ وأنت تحجرتَ — في عرف أهل الموضات — وتقدمتْ فتخلفتَ

يا أخي ! لقد تلقحت أخلاقنا الفاضلةُ الأصيلة بأخلاق سفلة الشعوب الوضيعة فنفلت وصارت كالخنثى ، لاهو ذكر ولا أنثى ، بل كالبغل ليست فيه أصالة الحصان ولا ضعف الأتان

هي « الموضة » ياعزيزي ... ! وقد أبت الأخلاق إلا أن تتكيف بها ، فتصبغت وتطيبت ثم تدلت وانتهت إلى هذه الحالة التي تشكو منها . وما شكاتك إلا شكاة الفضائل بأسرها ، والأخلاق العالية بكاملها . هي « الموضة » وعبثاً يحاول الإنسان أن يجاري المدنية ولا يجاريها ، فهي من مقوماتها الأولى ، ومستلزماتها الرئيسية

أفبعدَ هذا — يامحمود — تطمح إلى النجاح في القرن العشرين وعدتك له عدة الجدود الغابرين ؟

(شرق الأردن) خليل محمد الطوال